Conference Proceedings: Enhancing the Role of Islamic, Social, and Human Studies in Building Society, Volume 23, July 2026.

ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502

Journal Of the Iraqia University

available online at

https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/247

تجليات الوحدة الوجودية في شعر أدونيس

م. م حيدر حسن علي العقابي

المديرية العامة لتربية واسط قسم تربية النعمانية / اللغة العربية الادب

The Manifestations of the Doctrine of the Unity of Being in Adonis's Poetry

heyhe50@gmail.com

M. M. Haider Hassan Ali al-Aqabi

Arabic Language – Literature

الملخص

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن تجليات الوحدة الوجودية في شعر أدونيس، بوصفها إحدى الرؤى الفكرية والجمالية التي أسهمت في تشكيل تجربته الشعرية الحديثة. وينطلق البحث من دراسة العلاقة التي تقيمها الذات الشاعرة مع ذاتها والعالم والآخر، للكشف عن طبيعة الرؤية الكونية التي تحكم الخطاب الشعري عند أدونيس، والتي تقوم على تجاوز الحدود الفاصلة بين الإنسان ومحيطه الوجودي.وقد اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي في قراءة عدد من النصوص الشعرية المختارة، وتحليل بنياتها الدلالية والفنية في ضوء مفهوم الوحدة الوجودية. وتوصل إلى أن الذات في شعر أدونيس لا تتجلى بوصفها كياناً منغلقاً أو مستقلاً عن محيطه؛ بل تظهر بوصفها جزءاً من شبكة وجودية واسعة تتداخل فيها عناصر الطبيعة والزمان والمكان والذاكرة والآخر. كما كشفت الدراسة عن حضور رؤية كونية تسعى إلى تحقيق الانسجام بين الإنسان والعالم، من خلال لغة شعرية كثيفة تعتمد الرمز والصورة والإيحاء.وخلص البحث إلى أن الوحدة الوجودية تمثل أحد المرتكزات الأساسية في تجربة أدونيس الشعرية، إذ أسهمت في بناء رؤيته للوجود والإنسان، ومنحت قصيدته أبعاداً فلسفية وجمالية جعلتها تتجاوز حدود التعبير الذاتي إلى أفق إنساني وكوني أكثر شمولاً.

الكلمات المفتاحية: أدونيس، الوحدة الوجودية، الذات، الانتماء الكوني، الرؤيا الشعرية، الشعر العربي الحديث.

Abstract

This study aims to explore the manifestations of the doctrine of the Unity of Being in the poetry of Adonis, as one of the intellectual and aesthetic visions that have significantly shaped his modern poetic experience. The study examines the relationship established by the poetic self with itself, the world, and the other, in order to reveal the nature of the cosmic vision underlying Adonis's poetic discourse, a vision that transcends the boundaries separating human beings from their existential surroundings.The research adopts a descriptive-analytical approach in examining a selection of poetic texts and analyzing their semantic and artistic structures in light of the concept of the Unity of Being. The study demonstrates that the self in Adonis's poetry is not presented as an isolated or self-contained entity; rather, it appears as an integral part of a broader existential network in which nature, time, space, memory, and the other are deeply intertwined. Furthermore, the analysis reveals the presence of a universal vision that seeks harmony between humanity and the world through a rich poetic language characterized by symbolism, imagery, and suggestion.The study concludes that the doctrine of the Unity of Being constitutes one of the fundamental pillars of Adonis's poetic experience. It plays a central role in shaping his vision of existence and humanity, while endowing his poetry with philosophical and aesthetic dimensions that transcend the limits of personal expression and open it to broader humanistic and universal horizons.**Keywords:** Adonis, Unity of Being, Self, Cosmic Belonging, Poetic Vision, Modern Arabic Poetry.

المقدمة

يُعد الشعر الحديث فضاءً رحباً للتعبير عن التحولات الفكرية والروحية التي شهدها الإنسان المعاصر، إذ لم يعد الشعر مجرد وسيلة للتعبير عن المشاعر والانفعالات، بل أصبح مجالاً للكشف عن الرؤى الفلسفية والأسئلة الوجودية التي تشغل الإنسان في علاقته بذاته والعالم والآخر. وقد أسهمت الحداثة الشعرية العربية في توسيع آفاق التجربة الشعرية، فأتاحت للشاعر أن يعيد بناء العالم من خلال اللغة والرمز والرؤيا، وأن يجعل من القصيدة مساحة للتأمل في قضايا الوجود والهوية والحرية والمعنى.ويُعد الشاعر أدونيس من أبرز شعراء الحداثة العربية الذين تجاوزوا الوظيفة التعبيرية التقليدية للشعر إلى أفق فكري وفلسفي أوسع، إذ تتجلى في نصوصه رؤية كونية تنظر إلى الإنسان بوصفه جزءاً من نسيج الوجود، وتؤكد الترابط العميق بين الذات والعالم والطبيعة والآخر. ومن هنا برزت فكرة الوحدة الوجودية بوصفها أحد المرتكزات الفكرية والجمالية في تجربته الشعرية، حيث تتداخل الحدود الفاصلة بين الأنا والكون، ويتحول الوجود إلى فضاء تتفاعل فيه الكائنات والأشياء ضمن رؤية شعرية شاملة.وانطلاقاً من ذلك، يسعى هذا البحث إلى الكشف عن تجليات الوحدة الوجودية في شعر أدونيس، وتحليل مظاهر حضورها في النصوص الشعرية المختارة، من خلال دراسة علاقة الذات بذاتها، وعلاقتها بالعالم والوجود، وعلاقتها بالآخر، وصولاً إلى بيان الأبعاد الفكرية والجمالية التي أسهمت في تشكيل هذه الرؤية داخل تجربته الشعرية.

أهمية البحث

تنبع أهمية هذا البحث من أهمية تجربة أدونيس الشعرية بوصفها إحدى أبرز التجارب المؤسسة للحداثة الشعرية العربية، فضلاً عن أهمية موضوع الوحدة الوجودية الذي يمثل أحد المفاهيم الفكرية العميقة المرتبطة برؤية الإنسان لذاته وللكون من حوله. كما تكمن أهمية البحث في سعيه إلى الكشف عن الأبعاد الفلسفية والجمالية الكامنة في شعر أدونيس، وإبراز كيفية توظيفه للرموز والصور الشعرية في بناء رؤية تتجاوز الحدود التقليدية بين الذات والعالم. كذلك يسهم البحث في إثراء الدراسات النقدية المتعلقة بالشعر العربي الحديث من خلال تقديم قراءة تحليلية تركز على البعد الوجودي والوحدوي في التجربة الشعرية الأدونيسية.

مشكلة البحث:

تنطلق مشكلة البحث من محاولة الإجابة عن التساؤل الرئيس الآتي: كيف تجلت الوحدة الوجودية في شعر أدونيس؟ وما المظاهر الفنية والفكرية التي عبرت عن علاقة الذات بذاتها، وعلاقتها بالعالم والوجود، وعلاقتها بالآخر داخل النص الشعري؟ ويتفرع عن ذلك تساؤلات تتعلق بطبيعة الرؤية الكونية التي يقدمها أدونيس، ومدى انعكاسها على بنية القصيدة وصورها ورموزها.

أهداف البحث:

١- الكشف عن مفهوم الوحدة الوجودية وتجلياتها في شعر أدونيس.
٢- بيان طبيعة العلاقة بين الذات والوجود في التجربة الشعرية الأدونيسية.
٣- تحليل تمثلات الذات وعلاقتها بالعالم والآخر في النصوص المختارة.
٤- إبراز الأبعاد الفكرية والجمالية التي تشكل الرؤية الشعرية لدى أدونيس.
٥- المساهمة في دراسة البعد الفلسفي في الشعر العربي الحديث.

منهجية البحث:

اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي القائم على قراءة النصوص الشعرية وتحليلها في ضوء مفهوم الوحدة الوجودية، مع الإفادة من المنهج النقدي التأويلي للكشف عن الدلالات الفكرية والجمالية الكامنة في الخطاب الشعري. كما استند البحث إلى مجموعة من المصادر النقدية والفلسفية ذات الصلة بتجربة أدونيس والشعر العربي الحديث؛ للوصول إلى نتائج علمية تسهم في فهم الرؤية الوجودية في شعره.

تمهيد

تمثل الوحدة الوجودية إحدى الرؤى الفكرية التي تقوم على الإيمان بترابط الموجودات وتداخلها ضمن نظام كوني واحد، بحيث لا يُنظر إلى الإنسان بوصفه كائناً منفصلاً عن العالم؛ بل جزءاً من نسيجه الوجودي. وقد وجدت هذه الرؤية صداها في العديد من التجارب الشعرية الحديثة، ولاسيما في شعر أدونيس الذي انفتح على آفاق فلسفية وصوفية واسعة، جعلت من القصيدة فضاءً للتأمل في العلاقة بين الذات والوجود والآخر. ومن هنا تأتي أهمية دراسة تجليات الوحدة الوجودية في شعره للكشف عن أبعادها الفكرية والجمالية في بناء النص الشعري.

المبحث الأول : مفهوم الوحدة الوجودية

تُعد الوجودية من أبرز التيارات الفلسفية الحديثة, تركز على الفرد بوصفه الكائن الحر الذي يشكّل وجوده عبر اختياراته ومسؤوليته ووعيه بالزمن والموت والعبث فهي " فلسفة الذات الحرة, التي تنطلق من الوجود الفردي العيني, لا من الجوهر المجرد, وهي تقوم على القول بأنّ الإنسان يوجد أولاً ثم يُعرّف نفسه من خلال أفعاله" (ابراهيم، ١٩٨١، صفحة ٢٢). فالفكر الوجودي يرى أنّ الإنسان هو كائن مفتوح الإمكانات, لا يولد محكوماً بطبيعة ثابتة أو قدر محدد؛ بل يصوغ هويته الخاصة عبر تجربته الشخصية وما يخوضه من قرارات حرّة ومواقف وجودية تتسم بالقلق والمسؤولية (ابراهيم، ١٩٨١، صفحة ٢٤).

١-١: المبادئ الأساسية للفلسفة الوجودية

تُعد الفلسفة الوجودية تياراً فلسفياً يركز على الإنسان ككائن حي يتحمل مسؤولية صنع ذاته في عالم لا يحمل معنى ثابتاً, يشرح الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه (الوجودية) أنّ أهم مبدأ في هذا الفكر هو أنّ (الوجود يسبق الماهية), بمعنى أنّ الإنسان لا يولد محدداً بطبيعة أو جوهر معين؛ بل يكتسب هويته من أفعاله وقراراته الخاصة, كما يؤكد بدوي أن (الحرية) عند الإنسان ليست مجرد اختيار بسيط؛ بل هي مسؤولية كبرى لا يمكن التهرّب منها, فكل فرد مسؤول عن تشكيل وجوده ونتائج أفعاله, ويرى أيضاً أنّ (القلق والعبث) هما من السمات الأساسية للتجربة الوجودية, فشعور الإنسان بالغربة تجاه العالم وغياب المعنى, يجعله يعيش حالة من الانفصال والانعزال, وفي هذا السياق يُعد (الموت) لحظة إدراك حاسمة تذكّر الإنسان بهشاشته وطبيعة وجوده المحدودة, مما يضفي على الحياة جدية وعمقاً خاصاً (بدوي، ١٩٨٠، صفحة ١٤. ٣٠)

١-٢: خصائص الشعر الوجودي

يشير الدكتور جودت فخر الدين إلى عدد من السمات أو الخصائص التي يتميّز بها الشعر الوجودي وتجعله مختلفاً عن الشعر التقليدي:

١. التعبير عن القلق الوجودي: حيث تمثل القصيدة لحظة توتر داخلي تعكس قلق الإنسان تجاه ذاته والعالم المحيط به.

٢. الشعور بالاغتراب: ويظهر عبر انفصال الذات عن الجماعة, وعدم الانسجام مع العالم أو مع الواقع الاجتماعي.

٣. النزوع نحو الصمت والمفارقة: إذ تُظهر القصيدة ميلاً إلى التمركز على الذات والتعبير عن العجز عن إيجاد معنى قاطع أو أجوبة نهائية.

٤. اللغة المجازية المفتوحة: حيث تستعمل القصيدة لغة رمزية, تبتعد عن المباشرة؛ لتعكس غموض التجربة وقلقها.

٥. غياب البنية الخطية التقليدية: فالشعر الوجودي يميل إلى تفكيك الشكل الكلاسيكي, ويعتمد على البناء الحر الذي يعكس التشتت واللانهائية (فخر الدين، ١٩٩١، صفحة ٤٨. ٥٥)

١-٣: الوحدة الوجودية في شعر أدونيس

انفتحت تجربة أدونيس الشعرية, خصوصاً في مراحلها الفلسفية, على الهم الوجودي بشكل عميق؛ إذ يعالج في كثير من قصائده أسئلة الكينونة والهوية والموت والزمن والوحدة والحرية, متجاوزاً البعد السياسي والاجتماعي إلى تأملات في ماهية الوجود ذاته, وفي هذا المضمار يقول الناقد عبد العزيز حمودة" إنّ أدونيس لا يكتب شعراً مباشراً عن الإنسان؛ بل يكتب عن تمزّق الذات وتوقعها إلى المطلق ضمن مناخ فلسفي وجودي, يجعل الشعر ساحة للتوتر بين الذات والعالم" (حمودة، المرايا المحدبة من البنوية إلى التفكيك، ١٩٩٨، صفحة ٣٣٩)فـ" الشعر عند أدونيس وجود آخر, يتأسس على التوتر والتمزق, ورفض الاستقرار, تماماً كما تؤمن الفلسفة الوجودية بأنّ الإنسان مشروع لا ينغلق على هوية نهائية" (بنيس، ١٩٩٧، صفحة ١٧٤)إنّ شعر أدونيس ليس مجرد انعكاس للعالم الخارجي؛ بل هو تفجير للعالم من داخل الذات في محاولة لبناء المعنى, والتماهي مع الوجود, ومواجهة الآخر, ومن هذا المنطلق فإن تحليل شعره من زاوية وجودية, يقتضي الوقوف عند علاقة الذات الثلاث الأساسية التي تشكّل مرتكز التجربة الإنسانية كما تتصور الفلسفة الوجودية:

المبحث الثاني : وحدة الذات مع ذاتها:

يُعد مفهوم الذات في الفلسفة الوجودية ركيزة أساسية في فهم الوجود الإنساني, فالوجود الإنساني كما يوضّح (سارتر) يسبق أي تحديد مسبق للماهية, مما يجعل الذات مشروعاً مستمراً لتشكيل نفسها, بعيداً عن أي سلطة خارجية (سارتر، ١٩٨٠، صفحة ٧٨), وعند (أدونيس) تتجلى هذه الوحدة عبر وعي الذات بذاتها ككائن حر, يرى في القلق علامة حياة في إحدى عباراته المكثفة, يصف القلق بأنّه (مملكته) مما يعكس موقفاً وجودياً يعتبر القلق دليلاً على وعي الذات بحريتها ومصيرها, تماماً كما رآه (كيركيغارد) الذي اعتبر القلق بوابة اكتشاف الإنسان لذاته الحقيقية (كيركيغارد، ١٩٨٠، صفحة ٤٩).ومن النصوص الشعرية التي توّضح ذلك قول الشاعر في قصيدته (يأس):

ماشٍ على أجفانه سادراً

يجرّه مديدُ آهاتِه

تلطمه الحيرة أنّى مشى

كأنّها سُكنى لخُطواتِه

عُلّق بالغيب فأجفانهُ

رمليّةُ الأفُق

كأنما, من يأسه, شمسُه

تغيبُ في الشرق.

لقد " أصبحت القصيدة الحديثة ساحة للذات المفككة, تبحث عن صوتها بين أنقاض الزمن " (عباس، ١٩٧٨، صفحة ٢٢٩) وفي هذه القصيدة تبرز ملامح الوجودية الحديثة بشكل واضح, حيث تواجه الذات مصيرها وحيدة, في عالم خالٍ من اليقين, عبر صور القلق والتيه والغيب؛ إذ ترسم القصيدة لحظة انكسار داخلي نام, تتماهى فيها الذات مع الحيرة, ويصبح الوعي الذاتي عبئاً وجودياً, فالشاعر يصوّر ذاتاً تمشي على اجفانها مثقلة بالهم, يلاحقها القلق في كل خطوة, وتغدو الحيرة مقرّاً دائماً لها, فهذا الانعزال الداخلي والانشغال بأسئلة المصير, يعكس حالة وعي ذاتي وجودي, ترى فيه الذات أنّ القلق مكوّناً جوهرياً من كينونتها, لا عارضاً خارجياً, فاختلال اتجاه الشمس في نهاية النص(شمس تغيب في الشرق) ليس مجرد صورة فنية؛ بل تعبير عن اضطراب مركز الذات, وانهيار بوصلة المعنى داخلها, وبذلك تبرز القصيدة بوضوح ملامح الذات الوجودية كما وصفها (سارتر وكيركيغارد) بوصفها كائناً قلقاً حُرّاً, يواجه ذاته في مرآة التمزق والتأمل.وتتجلى الذات المنزوية على ذاتها في أقصى صورها الشعرية في قصيدة (مرآة الحجر) فيقول الشاعر:

عارياً تحت نخيل الآلهة,

لابساً رمل السنين

كنت ألهو باحتضاري

كنت ابني ملكوت الآخرين

بغباري

يا نبي الكلمات التائهة

يا نبي السفر الآتي إلينا

في رياح المطر

أنا واليأس عرفنا أنّك الآتي إلينا

وعرفناك نبياً يحتضر

فانحنينا

وسأبني بين قلبي والفضاء

عند أطراف النجوم

حاجزاً يلبس وجه البشر

والسماء.

وأغني للغيوم

حجر وجهي ولن أعشق غير الحجر

(أدونيس، أدونيس الأعمال الشعرية أغاني مهيار الدمشقي وقصائد أخرى، ١٩٩٦، صفحة ٢١٧)

تتجسد في هذه القصيدة حالة الاغتراب الوجودي التي تعيشها الذات في مواجهة ذاتها, حيث تتجلى ملامح الوحدة الداخلية في اقصى صورها عبر استبطان الذات وهروبها من العالم الخارجي إلى صلابة (الحجر), ويظهر الشاعر في حالة من التعري الرمزي أمام نفسه, معلناً تمرده على الزمن الجماعي(عاريا تحت نخيل الآلهة), وهو ما يعكس تفكك الذات وسعيها لخلق هوية فردية خاصة خارج الأطر التقليدية, وتتكرر نداءات الذات للذات في صور شبه نبوية(يا نبي الكلمات, يا نبي السفر) وهي أساليب إنشائية تُبرز انقسام الذات بين ذات تتكلم وذات تصغي, في تعبير دقيق

عبر الحوار الداخلي المأزوم. وفي الأبيات الأخيرة يتجلى الصراع الداخلي بين الأنا الحقيقية والأنا المستلبة, مما يعبّر عن حالة من الوعي الوجودي القلق, وتأتي النهاية بإصرار الشاعر على الالتصاق بالجوهر الجامد (حجر وجهي, ولن اعشق...) كتعبير عن الانغلاق داخل الذات المتصلبة ورفض التماهي مع الآخر, فالشاعر في هذه المعنى " حوّل القصيدة إلى مرآة باطنية, تكشف عن صراع الذات مع هشاشتها ووحدتها" (المقالح، ١٩٩٥، صفحة ٧٢)وفي قصيدة (كلمات لليأس) يقول الشاعر:

حين يُواخي صمتها المنزلُ:

لا عشب, لا قُبرة, لا ندى,

تفتح أهدابها

تفتح شباكها

للشمس... لكن, قبلها, تدخل

فراشةٌ محروقةٌ أو صدى.

(أدونيس، أدونيس الأعمال الشعرية أغاني مهيار الدمشقي وقصائد أخرى، ١٩٩٦، صفحة ١٢٢)تعكس هذه القصيدة حالة وجودية عميقة تعيشها الذات في انكفائها على نفسها؛ إذ يظهر المنزل في بداية النص كرمز مكثف للذات الداخلية, الموصوفة بأنّها خالية من الحياة والعلاقات (لا عشب, لا ثمرة, لا ندى), وهي دلالات تحيل إلى حالة القفر الروحي والوجداني التي تحاضر الشاعر من الداخل, والنافذة المفتوحة التي لا تستقبل سوى (رماد وصدى) هي صور توحي بأنّ الذات ليست في علاقة تفاعلية مع العالم؛ بل هي في عزلة وجودية خانقة, وهذا الحضور لليأس لا يطرح كحالة عابرة ؛ بل ككنه داخلي للذات, يصوغ ملامحها ويغذي وحشتها, والقصيدة برمتها تتحرك داخل فضاء داخلي موصد, لا يُكاشف فيه الآخر؛ بل تعود فيه الذات على ذاتها؛ لتكشف ضعفها وفقدانها للمعنى, وهو ما يتقاطع مع ما تؤكده خالدة سعيد بقولها" الذات في شعر أدونيس ليست مرآة للعالم بل صدى لأعماقها, حيث تتحول اللغة إلى أنين داخلي لا يبحث عن الآخر" ((سعيد، ١٩٧٩، صفحة ٢٩٥).

٢-١ : وحدة الذات مع العالم والوجود

تُعد وحدة الذات مع العالم والوجود مفهوماً محورياً في الفلسفة والأدب الحديث, حيث تنظر إلى الإنسان ككائن حي لا يمكن فصله عن محيطه الوجودي؛ إذ تتشكل الذات عبر تفاعلها مع العالم الخارجي, ويوضح الفيلسوف (كانط) أنّ الوعي الذاتي لا يتكون بمعزل عن العالم الخارجي؛ بل ينبثق من وحدة توافقية تجمع الإدراكات الحسية في وعي متكامل مستمر, وهو ما يسميه (التوحيد الفوقي للإدراك)؛ إذ لا وعي ذاتي إلا عن طريق علاقة معرفية مع العالم (كانط، ١٩٥٥، صفحة ١١١. ١١٣).وفي شعر أدونيس تتجلى وحدة الذات مع العالم والوجود بشكل واضح, عبر تصور الذات الشعرية ككيان متداخل مع الوجود الكوني لا ينفصل عن محيطه, وهذا ما نراه في قول الشاعر:

الشتاءُ يُودّع أشجارهُ

دون أن يتذكر أنّا وضعنا

عنده, نارنا

وامتزجْنا بأمطارهِ/ الصيفُ يجهل أحزاننا

والرّبيع أسيرٌ لأزهارهِ

ولأقلامها .

كتبت أمسِ مرثية

رددتها رياح الخريف/ الخريفُ يعلّمنا كيف يحيا

(أدونيس، أدونيس الأعمال الشعرية أغاني مهيار الدمشقي وقصائد أخرى، ١٩٩٦، صفحة ٥٧٧)في هذا المقطع, تتجلى وحدة الذات مع العالم والوجود عبر انخراط الشاعر في دورٍ وجودي يتجاوز الانفصال عن الطبيعة إلى التماهي معها, فالفصول الأربعة لا تُقدّم كعناصر خارجية؛ بل ككائنات تتفاعل مع الذات, وتُقابلها شعورياً وزمنياً, فالشتاء مثلاً لا يتذكر نار الإنسان ولا امتزاجه بالمطر, والصيف (يجهل أحزاننا), في حين أنّ الربيع (أسير أزهاره) لا لأحزان الإنسان, وهذا الجفاء الوجودي لا يقابل بالانفصال؛ بل بالبحث عن معنى ذاتي عبر الزمن الطبيعي, في النهاية يبرز الخريف كفصلٍ يمنح الذات وعيها بالوجود, حين (يعلمنا كيف نحيا), وكأنّ الإنسان يتلقى من الطبيعة درساً في الحياة, مما يؤكد امتزاج الذات

بالعالم ضمن بنية شعورية وفلسفية واحدة, وبهذه الصيغة يتحول الكون إلى مرآة داخلية للذات, وتتسق التجربة الشعرية مع الفكر الوجودي الذي يرى في الجسد والذات وسيطاً للانفتاح على العالم (بونتي، ١٩٧٣، صفحة ١٢)ويقول الشاعر:

أعْطني ما تَرسّب في جَرّة الأزمنهْ

أعْطني ما تَرسّب في الروح من تَعبِ الأمكِنهْ

أعْطني كل هذي الُمالهْ.

جسدي طافحٌ

جسدي كل بيتٍ

والشوارع في شرايينُ, والبحرُ نبْضٌ

هذه صورتي

وأنا هذه الرسالة.

(أدونيس، أدونيس الأعمال الشعرية أغاني مهيار الدمشقي وقصائد أخرى، ١٩٩٦، صفحة ٥٨٧) في هذا المقطع الشعري يتجلى مبدأ وحدة الذات مع العالم والوجود بوضوح, حيث تتداخل الذات مع محيطها إلى حد يتلاشى فيه الفرق بين الجسد والبيئة المحيطة به؛ إذ يصوّر الجسد على أنّه مشبع بالعالم من حوله, فالشارع يتدفق في عروقه, والبحر ينبض داخله, ما يعكس تماهياً عميقاً بين الإنسان والكون, كما تشير العبارات التي تتحدث عن ترسب الزمن والأمكنة في الروح إلى أنّ الذات ليست مجرد كيان منعزل,؛ بل هي نتاج تراكمات الوجود في الزمان والمكان, وحاملة لتاريخ داخلي متداخل مع المحيط, وينتهي المقطع بتأكيد هذا الاندماج الكامل حين تعلن الذات عن هويتها المزدوجة كصورة ورسالة, مما يدل على أن الفرد لم يعد موجوداً بمعزل عن العالم؛ بل أصبح جزءاً لا يتجزأ منه, وصوتاً يعبّر عن تواصل الإنسان مع الوجود بكليته وتتجلى رؤية الشاعر الكونية, حيث تنفتح الذات على الطبيعة والأشياء من حولها, وتتفاعل معها في مشهد وداعي شامل يقول الشاعر:

شجرٌ ينحني ليقولُ وداعاً

زهرٌ يتفتح, يزهو, ينكس أوراقه ليقول وداعاً

طرقٌ كالفواصل بين التنفس والكلمات تقول وداعاً

جسدٌ يلبس الرمل, يسقط في تيهه ليقول وداعاً

ورقٌ يعشق الحبر

والأبجدية والشعراء يقول وداعاً

والقصيدة قالت وداعاً

(أدونيس، أدونيس الأعمال الشعرية أغاني مهيار الدمشقي وقصائد أخرى، ١٩٩٦، صفحة ٥٦٤)تمثّل هذه الصور تجسيداً لفكرة (أنسنة) الطبيعة؛ إذ يوظف الشاعر الصور الشعرية فيجعل من الشجر والزهر والطرق كائنات واعية تشاركه طقس الوداع, وهذا التفاعل لا ينبع من الخارج ؛ بل من الداخل, من وعي الذات بامتدادها في الوجود, ومن استبطانها للطبيعة كجزء من كينونتها, فيذوب الشاعر في مظاهر الطبيعة فـ(الجسد يلبس الرمل)وهذه صورة استعارية تشير إلى فناء الجسد وتحوله إلى كيان ترابي, وهو تمثيل صريح لمفهوم الانصهار مع الكون, ويتعزز هذا المعنى في الإشارة إلى الورق والحبر والأبجدية والشعراء, التي تتخذ بدورها مواقف وداع, وكأن اللغة ذاتها تنسحب من الوجود, هذا المشهد الكلي يعكس ما يسميه (عبدة وازن) بـ" الانخطاف الصوفي في شعر الحداثة", حيث يصبح الشاعر جزءً من حركة الوجود, لا ذاتاً منفصلة عنه (وازن، ١٩٩٣، صفحة ٥٥) .

٢-٢ : وحدة الذات تجاه الآخر

تُعد العلاقة بين الذات والآخر من أبرز السمات التي تميّز الخطاب الشعري الحداثي؛ إذ تظهر الذات الشاعرة بوصفها كياناً وجودياً لا يكتمل إلا في حضور الآخر, فالعلاقة بين الطرفين علاقة جدلية تتراوح بين التنافر والتكامل, ذلك أنّ الخطاب الحداثي يعيد تشكيل مركزية الذات عن طريق وعيها بوجود الآخر, بوصفه عنصراً ضرورياً لتموضعها, رغم ما يحمله من توتر (حمودة، ٢٠٠٣، صفحة ٧٨).

إنّ تمثلات الآخر لم تعد مقتصرة على البعد الإنساني؛ بل اتسعت لتشمل الدولة والتاريخ واللغة بوصفها آخراً يفرض حضوره على تشكيل القصيدة المعاصرة (صالح، ٢٠١٢، صفحة ٤٥).يقول الشاعر:

في مهجتي تحيا معي قصة

أولها أبعدُ من أن يبين

أشمُّ فيها من ربى موطني

رائحة التفاح والياسمين

كأنما حروفها فُجرت

من جبلٍ صخرٍ وماءٍ معينْ

(أدونيس, ١٩٩٦, ٦٥)

تكشف القصيدة عن وحدة الذات تجاه الآخر من منظور وجودي, حيث لا يُصوّر الآخر ككائن خارجي معزول؛ بل كامتداد حميمي يسكن الذات ويتشكل فيها, فـ(القصة التي تحيا في المهجة) لا تنتمي لزمن أو مكان محدد؛ بل تتغلغل في الوعي والذاكرة, وتعبّر عن الآخر بوصفه جزءاً من الكينونة, ويظهر الوطن بوصفه تمثيلاً للآخر في صورة رائحة التفاح والياسمين؛ ليتحول إلى إحساس داخلي, لا موقع جغرافي, كما أنّ تشبيه الحروف بأنها (فجرت من جبل) يجسد العلاقة العضوية بين الذات والوجود, حيث تتوحد الذات مع عناصر الطبيعة, فيتحقق بذلك اندماجها العميق مع الآخر ضمن رؤيا كونية موحدة, وهي رؤيا يصفها أدونيس بأنّها" خروج من حدود الأنا المغلقة إلى فضاء كوني تتماهى فيه الذات مع ما حولها" (أدونيس، زمن الشعر، ١٩٩٨، صفحة ٤٤).وفي قصيدة (القافلة) تظهر علاقة الذات مع الآخر بأشكال متعددة إذ يقول الشاعر:

تصعد في سفينة النساءْ

تصعد في معراجْ

لا أرض لا سماءْ

قافلة من جثث الأمواجْ

لا شيء لا إلهْ

يسألها, من أين؟

تكتب فوق الصخرْ:

"حين يموت البحرْ

يُبعث في نهدينْ

(أدونيس, ١٩٩٦, ١٣٢) في هذه القصيدة تتبدى ملامح الوحدة الوجودية عبر تصوير الذات في حالة اغتراب وجودي عميق عن الآخر بكل تجلياته: الإله والإنسان والطبيعة, تبدأ الذات بصعود رمزي في سفينة النساء, أشبه بالمعراج؛ لكنها لا تجد سماءً ولا ارضاً, ما يكشف عن فراغ كوني وروحي يعكس حالة الانفصال الوجودي, ويتجسد الآخر بوصفه غائباً أو ميتاً, في صورة (قافلة من جثث الأمواج) وهو ما يعكس شعور الذات بالعجز عن الانتماء أو التواصل, حتى الإله يستحضر عبر النفي, (لا شيء لا إله), بما يعمق الإحساس بالفراغ الروحي؛ لكن الذات لا تستسلم لهذا الفراغ؛ بل تحاول أن تعيد بناء المعنى عبر اللغة؛ إذ تكتب (فوق الصخر)وتستحضر رمز الحياة في النهدين, بوصفه بعثاً بعد موت البحر, هنا يتحول الآخر من كينونة غائبة إلى صورة يولدها الخيال الشعري لتمنح الذات خلاصاً جزئياً, وبهذا فالقصيدة هي صراع الذات مع غياب الآخر, وسعيها إلى ترميم علاقتها به عبر الرمز والشعر ذلك أنّ" الذات في شعر الحداثة تتخذ من الآخر مرآة لكشف هشاشتها وعزلتها الوجودية" (خاوي، ١٩٨٠، صفحة ١١٣). ويقول الشاعر في قصيدة (حوار):

من أنتَ, من تختارُ يا مهيارْ؟

أنّى اتجهت, اللهُ أو هاويةُ الشيطانْ

هاويةٌ تذهب أو هاويةٌ تجيءْ

والعالم اختيارْ

لا الله اختار ولا الشيطانْ

كلاهما جدارْ

كلاهما يُعلق لي عيني

هل أبدل الجدار بالجدارْ

وحيرتي حيرة من يُضيءْ

حيرةُ من يعرف كل شيءْ (أودنيس، ١٩٩٦، صفحة ١٧٧)

تتجلى العلاقة الجدلية بين الذات والآخر بوصفها بنية تأسيسية في الوعي الشعري الوجودي عند أدونيس, تطرح الذات هنا في مواجهة تساؤلات مصيرية تتعلق بالاختيار(من انت؟ من تختار), هذا التساؤل لا ينطلق من موقع معرفي يقيني؛ بل من عمق الارتباك والحيرة, حيث يطرح الاختيار بين (الله أو هاوية الشيطان), ثم يلغى هذا الاختيار, وهذا يدل على تمرد الذات على ثنائيات الآخر الموروثة, فالقصيدة ترسم صورة ذاتٍ تبحث عن هويتها في عالم تتهاوى فيه اليقينيات, وتحكمه الحيرة, لا الجواب, والحيرة هنا ليست ضعفاً؛ بل شكلاً من أشكال المعرفة, وهذا يؤكد ما ذهب إليه إحسان عباس حين قال: " أنّ القصيدة تبحث عن صوتها بين انقاض الزمن" (عباس، فن الشعر العربي الحديث: تحليل وتذوق، ١٩٩٢، صفحة ٢٢٩)من هذا المنطلق , فإنّ الآخر في القصيدة ليس كياناً خارجياً يجابه, بل هو مرآة وجودية تُعيد الذات تشكيل ذاتها من خلالها, فالحوار ليس بين ذات وأخرى فقط؛ بل حوار داخلي مع الوجود كله, حيث يصبح الآخر (الله, الشيطان, المعرفة, الحيرة) جزءاً من البنية الداخلية للذات.أظهرت النصوص المدروسة أن مفهوم الوحدة الوجودية في شعر أدونيس لا يقتصر على مستوى الفكرة المجردة، بل يتحول إلى بنية شعرية تتجسد في الصور والرموز والعلاقات التي تقيمها الذات مع العالم. وقد بدت الذات الشعرية في معظم النصوص منفتحة على الوجود ومكوناته المختلفة، الأمر الذي أسهم في بناء رؤية كونية تتجاوز الحدود التقليدية بين الأنا والآخر والطبيعة. كما كشفت الدراسة عن حضور واضح للنزعة التأملية التي تجعل من القصيدة وسيلة لإعادة اكتشاف العالم وإعادة تشكيله من خلال اللغة الشعرية.

الخاتمة

بعد استقراء النماذج الشعرية المختارة وتحليلها، تبيّن أن الوحدة الوجودية تشكّل أحد المرتكزات الفكرية والجمالية الأساسية في تجربة أدونيس الشعرية، إذ تتجاوز القصيدة لديه حدود التعبير الذاتي لتغدو فضاءً رحباً للتأمل في الوجود وعلاقات الإنسان بالعالم. وقد أظهرت الدراسة أن هذه الرؤية تتجسد من خلال تفاعل الذات مع ذاتها، ومع العالم والوجود، ومع الآخر، ضمن شبكة من العلاقات التي تقوم على الامتزاج والتداخل أكثر مما تقوم على الانفصال والتقابل.

وقد أسفرت الدراسة عن جملة من النتائج، أبرزها:

١. كشفت تجربة أدونيس الشعرية عن رؤية وحدوية للوجود تقوم على الترابط العميق بين الإنسان والعالم، وتؤكد أن الكائن جزء من بنية كونية شاملة تتجاوز الحدود التقليدية بين الذات والموضوع .

٢. تجلت وحدة الذات مع ذاتها من خلال وعي استبطاني عميق، جعل الذات الشعرية فضاءً للتأمل والكشف المستمر عن أبعادها الوجودية والروحية، بعيداً عن التصورات الثابتة والمغلقة للهوية .

٣. أظهرت النصوص الشعرية تماهياً واضحاً بين الذات والطبيعة، حيث تحولت عناصر الكون من فصول وأشجار ورياح وأمكنة إلى مكونات فاعلة في تشكيل التجربة الشعرية، بما يعكس وحدة جوهرية بين الإنسان والعالم .

٤. اتخذ الآخر في شعر أدونيس أبعاداً متعددة تجاوزت الحضور الإنساني المباشر ليشمل الوطن والتاريخ واللغة والذاكرة، الأمر الذي جعله جزءاً من التكوين الداخلي للذات لا عنصراً منفصلاً عنها .

٥. أبرزت الدراسة أن الهوية في شعر أدونيس ليست معطى ثابتاً أو جوهراً مكتملًا، بل هي عملية تشكل مستمرة تتحدد عبر التفاعل الدائم مع الوجود ومكوناته المختلفة .

٦. بيّنت النصوص المدروسة أن الوحدة الوجودية عند أدونيس لا تعني الذوبان السلبي في العالم، بل تمثل فعلاً إبداعياً قائماً على إعادة اكتشاف الوجود وإعادة تشكيله من خلال اللغة الشعرية والصورة والرمز .

وختاماً، يمكن القول إن شعر أدونيس يقدّم رؤية شعرية وفكرية تتأسس على الإيمان بوحدة الوجود وترابط مكوناته، وهو ما منح تجربته أفقاً إنسانياً وكونياً واسعاً، وجعلها واحدة من أبرز التجارب الشعرية العربية الحديثة التي سعت إلى إعادة بناء العلاقة بين الذات والعالم في إطار من التأمل والكشف والإبداع.

المصادر والمراجع

١. إبراهيم، زكريا .(1981) .مشكلة الوجود)ط٦). القاهرة: مكتبة مصر .

٢. عباس، إحسان .(1978) .فن الشعر الحديث)ط٢). بيروت: دار الثقافة .

٣. عباس، إحسان .(1992) .فن الشعر العربي الحديث: تحليل وتذوق)ط٢). عمّان: دار الشروق .

٤. أدونيس .(1996) .الأعمال الشعرية الكاملة: أغاني مهيار الدمشقي وقصائد أخرى .دمشق: دار المدى للثقافة والنشر .

٥. أدونيس .(1998) .زمن الشعر)ط١). بيروت: دار العودة .

٦. بدوي، عبد الرحمن .(1980) .الوجودية)ط٥). بيروت: دار القلم .

٧. بنيس، محمد .(1997) .الحداثة المعطوبة)ط١). الدار البيضاء: دار توبقال للنشر .

٨. بونتي، موريس مرلو .(1973) .الظاهراتية الإدراكية .بيروت: دار الآداب .

٩. حمودة، عبد العزيز .(1998) .المرايا المحدبة: من البنيوية إلى التفكيكية .الكويت: دار سعاد الصباح .

١٠. حمودة، عبد العزيز .(2003) .الخروج من التيه: دراسة في سلطة النموذج الغربي في التشكيل الثقافي العربي .القاهرة: دار الشروق .

١١. خاوي، خليل .(1980) .الرمز والرمزية في الشعر العربي الحديث)ط١). بيروت: دار العلم للملايين .

١٢. سعيد، خالدة .(1979) .حركة الشعر الحر: شهادات وتنظيرات)ط١). بيروت: دار العلم للملايين .

١٣. صالح، كامل فرحان .(2012) .تمثلات الذات والآخر في الشعر العربي الحديث)ط١). بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر .

١٤. فخر الدين، جودت .(1991) .الاتجاه الوجودي في الشعر العربي الحديث)ط١). بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر .

١٥. كانط، إيمانويل .(1955) .نقد العقل المحض .القاهرة: دار المعارف .

١٦. كيركيغارد، سورين .(1980) .مفهوم القلق)ترجمة: كمال الحاج). بيروت – باريس: منشورات عويدات .

١٧. المقالح، عبد العزيز .(1995) .قراءة في أدب أدونيس .الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي .

١٨. وازن، عبده .(1993) .الغابة المقفلة: بحث في شعر أدونيس)ط١). بيروت: دار النهار.